دولة اليمن ودولة آل السعود

بحث تاريخي في نشأتهما وتطورهما

لامين سعيد

جلا الترك عن بلاد العرب في ختام الحرب العظمى عملاً باتفاق مُدْرُوس المعقود بينهم وبين الحلفاء يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ ثم تنازلوا في مؤتمر لوزان (دسمبر — يوليو سنة ١٩٢٣) عن سيادتهم عليها الى اهلها اقصهم لا الى دول الحلفاء وكانت تحتل الجزء العامر منها

وكان في جزيرة العرب يومئذٍ خمس امارات او حكومات تتنازع السيادة والفوز : امارتا الرياض وحايل في الشمال ودولة الحجاز في الوسط وصبيا وصنعاء في الجنوب . وكان العداء مستحكماً بين امرائها فابن السعود صاحب الرياض يناصب ابن الرشيد صاحب حايل العداء ويشن عليه الغارات وكان الحسين صاحب الحجاز ينفر من وجود الامارة الادريسية على حدوده الجنوبية ويعد صاحبها مغتصباً ويرى ان تهامة عسير جزء لا يتجزأ من الحجاز فيجب ان تعاد اليه وان يطرد ابن ادريس لانهُ دخيل مغتصب . وكان في نفس الامام يحيى بن حميد الدين من ناحية الامارة الادريسية ما كان في نفس الحسين فقد ساءه نجاح السيد محمد علي الادريسي في توطيد دعائم امارته وكان طامعاً فيها راغباً في الاستيلاء عليها لانهُ يعدها جزءاً من اجزاء اليمن . وزاد في تقمته عليه تسليم الانكليز للحديدة بعد الحرب الى السيد الادريسي وهي ميناء صنعاء الكبير وباب العربية السعيدة . ومعنى ذلك ان ابن ادريس كان بين عدوين قويين في الشمال وفي الجنوب يتربصان بامارته دوائر السوء ويكيدان لها المكائد ويترقبان الفرص للانقضاض عليها

ولم تكن العلاقات بين الحسين صاحب الحجاز وابن السعود صاحب الرياض على ما يرام مع ما كان الانكليز يبذلونهُ من مساعٍ للتوفيق والاصلاح بين حليفهم الحسين وصديقهم ابن السعود وقد كان الاول يعمل لاخضاع امارة الرياض لاشراف مكة كما كانت في عهد جده محمد بن عبد المعين اي بعد الغارة المصرية على الحجاز سنة ١٨١١ — ١٨٣٠ فقد خضعت لهم فترة غير قليلة

الانكليز والامارات العربية

وكان بين الانكليز وبين ثلاث من هذه الامارات اتفاقات تنظم علاقاتها بهم وربما كان السيد الادريسي صاحب عسير هو اول امير في جنوبي الجزيرة تعاقد مع الانكليز فقد اغتنم فرصة الحرب العظمى فعقد معهم في سنة ١٩١٥ اتفاقاً اعترفوا فيه باستقلال امارته وأمدُّوه بالمال والسلاح وأوفدوا في سنة ١٩١٥ بعثة الى ابن السعود لاستمالته واقناعه بدخول الحرب في جانبهم فعقدت

معه معاهدة العقير يوم ٢٦ دسمبر سنة ١٩١٥ وقد اعترفت فيها انكلترا بأن نجداً والحسا والقطيف وجبيلا وتوابعها هي بلاد ابن السعود كما اعترفت به حاكماً عليها وتعهد (ابن سعود) بأن لا يسلم ولا يبيع ولا يرهن ولا يؤجر الاقطار المذكورة ولا قسماً منها ولا يتنازل عنها بطريقة ما ولا يمنح امتيازاً ضمنها لدولة اجنبية او لرعايا دول اجنبية من دون موافقة الحكومة البريطانية وبأن يتبع مشورتها دائماً بلا استثناء على شرط ان لا يكون ذلك مجحفاً بمصالحه (مادة ٤) وتعهدت الحكومة البريطانية في المادة الثانية بمساعدة ابن السعود — بعد استشارتها — اذا اعتدت دولة اجنبية على اراضيه

ونظمت العلاقات بين الانكليز والحسين على قاعدة غير هذه القاعدة فقد اعترفوا بالاستقلال التام للحجاز بدون قيد ولا شرط واعترفوا بدولته كما اعترفوا بالحسين ملكاً عليه . وعاملوه معاملة الند للند . نعم انهم لم يعقدوا معه اتفاقاً رسمياً كالاتفاق الذي عقدوه مع ابن السعود بيد ان العهود التي قطعوها له في ابان الحرب العظمى لا تدع شكاً في صحة ما ذهبنا اليه وقد ايدها الواقع فقد مثّل الملك فيصل الدولة الحجازية في مؤتمر الصلح حين افتتاحه واعتبرت الدولة الحجازية من الدول المؤسسة لجمعية الامم ودعيت الى الاشتراك في اعمالها والجلوس بين اعضائها فحال دون ذلك رفض الحسين التوقيع على معاهدة فرسايل فقد ابى ان يوقعها لاعتبارين جوهريين : ١ — لانها نصت على مبدأ الانتداب وهو لا يقره ٢ — لانها لم تعترف للعرب بالاستقلال التام وفقاً للعهود المقطوعة له[1]

فالخلاف بين الانكليز والحسين لم يكن على استقلال الحجاز وقد كان هذا مفروغاً منه وانما كان على مصير الاقطار العربية المحررة وهي العراق وسورية وفلسطين فقد كان يطالب بمنحها الاستقلال التام وفقاً للعهود المقطوعة له . على اننا نذكر ان الانكليز سعوا بعد الحرب لتصفية هذه العهود بمشروعين عرضوهما عليه وقد حمل الاول الكولونيل لورانس الى جدة في سنة ١٩٢٠ وحمل الثاني الدكتور ناجي الاصيل سنة ١٩٢٣ فلم يقبلهما الحسين ولم يقرهما[2]

ولم تكن العلاقات بين الانكليز وابن حميد الدين في ذاك العهد على ما يرام فقد سعوا في ابتداء الحرب الى استمالته والتعاقد معه ، كما فعلوا مع الامراء الآخرين واستعانوا على ذلك بسلطان لحج حليفهم وصديقهم فأبى وأقام على ولائه للدولة العثمانية يرعى جنودها المحصورين في اليمن وقد جلوا بعد الهدنة فتسلمها وأنشأ هذه الحكومة في ربوعها

وكان الى جانب هذه الامارة والحكومات الخمس المتنافسة المتناحرة المتعادية امارتان صغيرتان الاولى في الجوف شرقي الشام يسيطر عليها آل الشعلان وكانت في الاصل خاضعة لآل الرشيد في حايل فلما ضعف شأنهم جاهرت بالانفصال عنهم وامارة آل عايض في ابها (شرقي نجد) وغرب امارة صبيا فقد استقل هؤلاء في ابها (عسير السراة) وتسلمها من الترك حين جلائهم في سنة ١٩١٨

(١) عالجنا هذا الموضوع وتوسعنا في بحثه ونشرنا النص الكامل لهذه العهود وتبلغ نحو ١٤ عمداً في كتابنا الثورة العربية الكبرى وهو يطبع الآن في مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ويقع في ثلاث مجلدات ويصدر في شهر يوليو المقبل

(٢) نشرناها بنصها الكامل في الكتاب ايضاً

انتصار ابن السعود في نجد والحجاز

تلك كانت حالة جزيرة العرب من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٢١ : ثلاث امارات في الشمال : آل الشعلان وآل الرشيد وآل السعود ، وثلاث في الجنوب : ابن حميد الدين وابن عايض وابن ادريس وفي الوسط الحجاز صاحب الدولة المستقلة وحليف الحلفاء وصاحب الجيش المنظم والمطالب بالسيادة على هذه الاقطار كلها والساعي ليحل محل الدولة العثمانية في السيطرة عليها

والواقع ان مطامع الحسين ما كانت تقف عند اخضاع الامارات العربية لسلطانه بل كان يسعى لانشاء دولة عربية كبيرة تضم الاقطار العربية المحررة ونعني بها العراق والشام وفلسطين وقد خاض الحرب لاجلها ، وكانت مسألة الامارات العربية في داخل الجزيرة ثانوية في نظره ولا نشك في انه لو فاز في تنفيذ هذه الخطة وانشأ الامبراطورية العربية الكبرى — وقد رسم حدودها في مكاتباته مع الانكليز وهي تمتد حتى خليج فارس وحدود ايران شرقاً وسلسلة جبال طوروس شمالاً والبحر الأحمر غرباً وعدن جنوباً — لساد العرب كلهم في داخل الجزيرة وفي خارجها ولساد هذه الامارات وسيطر عليها واصبح سيد العرب غير مدافع

واول اخفاق سياسي اصيب به الحسين هو تملص الحلفاء من عهودهم الصريحة ومنعهم اياه من التدخل في شؤون العراق وانشائهم ادارة بريطانية في فلسطين واصدارهم وعد بلفور لليهود ونزول الفرنسيين في الساحل الشامي ثم تقويضهم الدولة الفيصلية في دمشق . اما خيبته العسكرية فقد تمت يوم تربه فقد مزق السعوديون الجيش الكبير الذي اعده وسيره الى الرياض في ربيع سنة ١٩١٩ لفتحها والقضاء على الامارة السعودية فكان ذلك اليوم مبدأ تألق كوكب ابن السعود كما كان مبدأ افول نجم الدولة الهاشمية الجديدة ولم تلبث ان هوت في سنة ١٩٢٤ تحت اقدام الغزاة السعوديين

وشجع ابن السعود ما لقيه انصاره من نصر في تربه[1] وما غنموه من معدات وذخائر واموال — وكان يراقب سير المعركة عن بعد ولم يشترك فيها بالذات — فزحف على حايل عاصمة آل الرشيد ولم يزل يطاولها وينازلها حتى استسلمت اليه يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ وقاد أميرها محمد بن متعب ابن الرشيد أسيراً الى الرياض ولا يزال فيها حتى الآن . ثم اتبع امارة آل الشعلان في الجوف بامارة آل الرشيد فاستولى عليها وضمها الى املاكه واتجه في سنة ١٩٢٢ نحو عسير فدك امارة آل عايض ثم زحف على الحجاز في سنة ١٩٢٤ فاستولى عليه ايضاً وفي سنة ١٩٢٦ دخلت امارة الادارسة في تهامة عسير تحت حمايته وأشرقت شمس سنة ١٩٢٧ على بلاد العرب وابن السعود يسيطر على شمالها وشرقها وجنوبها وغربها ووقفت جيوشه في الجنوب عند حدود ابن حميد الدين صاحب اليمن الذي اصبح وجهاً الى وجه امام ابن السعود مكتسح الامارات ومبيدها

(١) وقعت معركة تربه ليلة ١٧ مايو سنة ١٩١٩ فقد بيت الجديون الجيش الهاشمي عند الفجر فأثخنوه وشتتوه . ولم تمر غير هذه المعركة بينهم وبينه

اول صدام بين اليمانيين والسعوديين

واول مرة وقف فيها زعيما الجزيرة وجهاً الى وجه كانت في سنة ١٩٢٦ فقد حمل ابن حميد الدين في سنة ١٩٢٤ على الادارسة في تهامة فاستولى على مدنهم الشمالية وتقدم حتى ميدي . فخاف هؤلاء العاقبة فلجأوا الى ابن السعود وعقدوا معه معاهدة مكة يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٦ ودخلوا بمقتضاها في حمايته فارسلها على الفور بنصها الكامل مع كتاب الى ابن حميد الدين يرجوه ان يصدر الامر الى قواده بالكف عن مهاجمة امارة الادارسة لانها في حماه . وقد كانت مفاجأة عنيفة فوجىء بها الامام فاما ان يقر المعاهدة ويعترف بها وبذلك تفلت الامارة من يده وقد كان طامعاً باستصفائها والقضاء عليها . واما ان يرفضها ويأمر عبد الله بن الوزير قائد جنده في تهامة بمواصلة الزحف فيصطدم بابن السعود ويدور القتال بين سيد الشمال وسيد الجنوب وتقع الوقعة الكبرى

وجنح الامام الى السلام واقر الامر الواقع وابلغ قائده بأن يوقف رحى الحرب ولبى دعوة ابن السعود الى المؤتمر الاسلامي في مكة سنة ١٩٢٦ واشترك فيه فأرسل اليه هذا الرسل مع الهدايا في سنة ١٩٢٧ فقابله بالمثل وارسل اليه في شهر ابريل سنة ١٩٢٨ وفداً من السيد قاسم بن حسين والسيد محمد بن زبارة والسيد عباس بن احمد ومعهم حاشية فشهدوا الحج سنة ١٣٤٦ وكانت مهمة الوفد مفاوضة ابن السعود في تحديد الحدود بين البلادين وفي عقد معاهدة تنظم علاقاتهما . وعاد يحمل الى الامام مقترحات للاتفاق لم تنل من جانبه قبولاً

معاهدة العرو

وتعددت الرسل والوفود في خلال الفترة المنقضية بين سنة ١٩٢٨ — ١٩٣١ بين صنعاء والرياض للاتفاق على تحديد الحدود وسافر مندوبو الفريقين الى عسير ليبدأوا بالعمل فاجتمعوا يوم ٢٥ جمادي الثانية سنة ١٣٥٠ (سبتمبر سنة ١٩٣١) في مكان يسمى النظير واقترح السعوديون ان يجلوا اليمانيون عن جبل العرو الذي احتلوه ، الى خط الحدود الاصلي فأبى مندوبو هؤلاء واصروا على الاحتفاظ بالجبل ورفع كل مندوب الى حكومته الامر طالباً تعليماتها فاتصل الملك بالامام اتصالاً برقياً فاجابه انهُ يحكمه في الخلاف فأرق اليه قائلاً بأنهُ يتنازل عن الجبل لليمن حلاً للاشكال

وعقد المندوبون على الاثر معاهدة وقع عليها يوم ١٥ شعبان ١٣٥٠ جاء في المادة الاولى منها ما نصهُ « يكون على الدولتين المحافظة على الصداقة وحسن الجوار وتوثيق عرى المحبة وعدم ادخال الضرر ببلاد كل منهما على الآخر وجاء في المادة الثانية يكون على كل من الدولتين تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين المحدثين بعد هذه الاتفاقية كل لحكومته عند طلب حكومة له وجاء في المادة الثالثة يكون على كل من الدولتين معاملة رعايا الدولة الاخرى في بلادها في جميع الحقوق طبق الاحكام الشرعية

ثورة الادارسة

ولقد كنا نظن ان العلاقات السياسية استقرت بينهما على اثر عقد هذه المعاهدة . بيد ان ثورة

الادارسة على ابن السعود في سنتي ١٩٣١ — ١٩٣٢ اثبتت ان الامر على النقيض من ذلك فقد لجأ امراء العائلة الادريسية وانصارهم الى اراضي الامام في تهامة حينما تغلب عليهم السعوديون فقوام اليمنيون عملاً بسنن العرب واجزلوا قراهم . ولما كانت معاهدة العرو تقضي على الامام بتسليم هؤلاء وكان تسليمهم يلبس اليمن لباس الخزي والعار فقد عجل الامام يحيى فارسل في اواخر شهر فبراير سنة ١٩٣٣ برقية الى ابن السعود يعلنهُ بوصول السيد الحسن الادريسي ومعهُ جملة من اصحابه وحاشيته الى ميدي ويرجوه منحهم الامان الكامل المطلق والعفو عن كل ما حدث فاجابهُ ببرقية قال فيها ان جميع من التجأ اليكم له امان الله على ماله ودمه وانهُ عفو تام شامل عن جميع ما مضى وحدث في هذه الفتنة الشيطانية سواء حقوق الحكومة او حقوق الاهلين وان جميع من اعطيتموه الامان والمكان فهو تام على وجهه ما يحذرون شيئاً سواء في ذلك الحسن (السيد الحسن) وآله وغيره من الرعية

فاجاب الامام ببرقية قال فيها انهُ كتب الى جميع العمال بارجاع كل من لديهم على وجه السرعة وطرد من تأخر وطلب منهُ بان يحرر للسيد الحسن ومن اليه « بتحرير عفو وامان له خاص » فرد عليهِ شاكراً له سعيه للاصلاح وقال انهُ يعطي امان الله وعهده للحسن ومن تبعه على دمه وشرفه وان جميع ما فات منهُ لا يعاقب عليهِ وانهُ سيكون اخاً عزيزاً له. ومع كل ما جرى فقد ظل الادارسة ومن معهم في ميدي ولم يعودوا الى عسير كما وعدوا وتوسط الامام ثانية فتقرر عقد مؤتمر في ميدي يحضره السيد الحسن ورجاله ومندوب لابن السعود ومندوب للامام. وقد عقد هذا المؤتمر في اواخر شهر شوال سنة ١٣٥١ واستمر شهرين وانفض من دون نتيجة فقد طلب الادارسة اعادة الحالة في عسير الى ما كانت عليهِ قبل الثورة واصر مندوب ابن السعود على تقديم الخضوع بلا قيد ولا شرط

مفاوضات صنعاء

وقبل ان تحل مشكلة الادارسة ارسل الملك عبد العزيز رسولاً الى الامام يحيى محمد بن ضاوي يحمل اليهِ اقتراحات لعقد معاهدة دفاعية بين البلادين لمدة عشرين سنة وانشاء اتحاد جمركي وبريدي وقبول مبدأ التحكيم في ما يحدث من خلاف على ان يكون الحكم طبق احكام الشريعة الاسلامية فاجاب الامام بالموافقة مبدئياً وطلب تعديل الحدود من جهة عسير ومعنى ذلك ان يتنازل له عنها

وفي شهر ابريل سنة ١٩٣٣ ارسلت حكومة مكة وفداً تألف من خالد بك القرقني وحمد السليمان الى صنعاء لمفاوضة الامام في دائرة تلك المقترحات ، ولم يكد يحط رحاله فيها حتى مرض الامام فانتظره نحو شهرين تقريباً لم يعمل في خلالها عملاً يستحق الذكر

وبينما كان العالم العربي ينتظر ورود الاخبار من صنعاء حاملة بشرى الاتفاق فوجىء يوم ١٠ اغسطس بنبأ اذاعتهُ المصادر السعودية في مصر وخلاصتهُ ان الامام طلب في اثناء المفاوضات تخلي ابن السعود له عن مقاطعة الادارسة في تهامة او عن قسم منها وادخال منطقة نجران في داخل الحدود اليمانية وانهُ ارسل القوات فاحتلت نجران كما منع الوفد السعودي عن السفر

ولما وصلت هذه الاخبار الى صنعاء كذبها الامام تكذيباً قاطعاً وقال انها من صنع دعاة السوء وكذبتها حكومة مكة ايضاً واستؤنفت المفاوضات البرقية بين الملك والامام واذيع في اواخر شهر يناير الماضي ان الاخير قبل مبدئياً مقترحات الحكومة السعودية لتنظيم العلاقات بينهما وهي :

١ — الاعتراف بالحالة الحاضرة في عسير ٢ — عقد معاهدة دفاعية ترمي الى المحافظة على سلامة الجزيرة وتعزيز القضية العربية ٣ — تنظيم العلاقات التجارية والاقتصادية وعلاقات القبائل وطرق معاملاتها في اثناء تنقلاتها ٤ — تأجيل البت في مصير مقاطعة نجران الى فرصة اخرى

ووافق الامام ايضاً على عقد مؤتمر في ابها يشترك فيه مندوبو الحكومتين للبت في هذه الشؤون والتوقيع على الاتفاقات الخاصة بها

مؤتمر ابها

عقد هذا المؤتمر في اواخر شهر فبراير الماضي ومثل الحكومة اليمانية فيه السيد عبد الله بن الوزير ومثل الحكومة السعودية وكيل خارجيتها وبدأ عمله في جوّ صافٍ اعتقدنا معهُ ان التوقيع على المعاهدة لا يلبث ان يتم ولكننا فوجئنا يوم ٢٢ مارس ١٩٣٤ ببلاغ رسمي اذاعته الحكومة السعودية بانقطاع العلاقات بينها وبين اليمن وهذا نصهُ : « بالرغم من استنفاد جميع الوسائل السلمية بقي الامام يحيى ماضياً في خطته العدائية نحونا كاحتلاله جبالنا في تهامة واستمراله القسوة مع اهلها ، فضاعت بذلك الجهود التي بذلت في خلال سبعة اشهر وقد اصدر جلالة الملك امراً الى سموّ ولي العهد بالزحف الى الحدود واسترداد المناطق التي احتلها جنود الامام يحيى منتظرين فرصة المفاوضات »

بهذا البلاغ وما تلاه اعلنت حكومة مكة وجود حالة الحرب بينها وبين حكومة الامام يحيى فاضطرب العالم العربي ووجل خوفاً مما قد تُسفر عنهُ من نتائج سيئة وارسل البرقيات والرسائل الى الملكين يرجوهما الكف عن القتال فردّ الامام يحيى يوم ٧ ابريل على برقية لسموّ الامير عمر طوسن ببرقية هذا نصها « بعد انتهاء المراجعات بيننا وبين حضرة الملك عبد العزيز والوفاق على امهات مواد المعاهدة كان منا ارسال المندوبين لعقد المعاهدة مضمرين كل صداقة واخوة للمشار اليه مستبشرين بصلاح الشأن وحقن الدماء حريصين على جمع كلمة المسلمين غير مجوزين شقاقاً . وفي خلال هذا وحضرة المشار اليه يحشد الجيوش في كل جهة حتى اذا تم استعداده أفد الينا انه موجه جيوشه علينا فاجبناه بكل لطف وصداقة وكنا افدنا الى حضرتكم في جوابنا انهُ سيكون اعتماد ارشادكم وثباتنا عند حد الدفاع فلم نشعر الاّ بالتجمع الفعلي بالجنود المجندة للعدوان على اطراف بلادنا ومع هذا فلا ندري حتى الآن ما عليه مندوبنا في ابها . وقد رأينا من واجب الاخوة الدينية اعلامكم بالحقيقة »

واذيع في ١١ منه ان الامام يحيى طلب من ابن السعود وقف القتال وان هذا اجابه مشترطاً بعض شروط ومع انهُ مضى على ارسال الجواب اكثر من عشرة ايام فلم يرد ما يشعر بقبوله الشروط كما لم يرد ما يدل على ان الحرب اوقفت ولا يزال كل شيء من هذه الناحية مجهولاً حتى كتابة هذه السطور